ديوان « من وحى الريف »

تأليف الأستاذ توفيق عوضى

بقلم الأستاذ ثروت أباظه

كثرت فى هذه الملاوة مدارس الشعر وتعددت مذاهبه . فترى من الشعراء من يقصد إلى المعنى غير محتفل باللفظ أو الصياغة ، وهو فى ذلك يسير بالشعر فى طريق النثر . وترى منهم بعضاً يعنون بالصياغة واللفظ دون التفات إلى التجديد فى المعنى؛ وعذرهم فى ذلك أن عنترة شاعر الجاهلية قد قال « هل غادر الشعراء من متردم » فإن كان عنترة منذ ألفى عام قد يئس أن يجد معنى جديداً فهل يبحثون هم عن معنى جديد بعد هذه الحقبة الطويلة من السنين التى مرت فانهكت القديم وأخلقته ، بل وأخلقت أيضاً ما ظهر فى غضونها من معان جديدة ؟

ومن الشعراء من يقول إن الشعر الصادق إشاع للعاطفة ، والعواطف منذ كانت خالدة على الزمان لا تتغير ؛ فواجب الشاعر إزاءها أن يبين عنها فى أنصع تعبير . وهنا يختلف القوم مرة أخرى ، فمنهم من يرى أن الصياغة يجب أن تكون مشرقة فى عربية صريحة لا تيسير فيها ، ومن الشعراء من يرى وجوب التحلل من قيود الصياغة العربية ؛ ويقف البعض موقفاً وسطاً فتراه يلتزم السهولة فى تعبيره مع التزام الصياغة العربية معتقداً أن واجب الشاعر هو الوصول إلى قلب سامعيه من أقرب طريق ، وزعيم هذه المدرسة هو الشاعر العربى الأكبر إيليا أبو ماضى . وقد انضوى كل شاعر تحت مدرسته بأبى أن يجيز لأى مدرسة أخرى أن تقول الشعر معتقداً بأن الشعر هو ما يكتب وما دونه كلام لا يصح أن يسمى شعراً ... ولا شك أن هذا التعصب يتساق مع طبيعة الشاعر المفكرة ولكن واجبه أزاءها الا ينتقد أبداً . . . ذلك أن نقده على أية حال سوف يكون — رغم أنفه — جائراً . وواجب النقاد إزاء كل هذه المدارس أن يقفوا منها على حياد المتفرج حتى يحكموا على كل شاعر بالنسبة للمدرسة التى يؤمن بها ، وبهذا يكون المعيار سليما لا تحيز به ولا إجحاف ...

والأستاذ توفيق عوضى من الذين يؤمنون بالسهولة دون الميوعة فى الصياغة ولا يقبل أبداً أن يترجم عن إحساس لا ينبعث من صميم قلبه ؛ فهو يفهم كلمة العاطفة فهمها الصحيح ، فقد ذهب البعض إلى أن العاطفة هى الحب أو البغض بما يستتبع كلا الحالين من مشاعر وأحاسيس ، أما توفيق فقد فهمها على أنها انعكاس الصور الخارجية على نفسه الشاعرة ثم عبر عنها على أنها منبعثة من صميمه ؛ وعلى هذا تراه دائم النظر إلى ما حوله يحاذر أن تفوته واقعة فلا يسجل أثرها فى نفسه شعراً . فتراه يقول حين يستأجر الحمار والغلام بثمن واحد :

يزهدنى فى النصل أنى بأمة
تساوى بها الإنسان والعير فى الأجر
وما دام أجر المرء والعير واحداً فحقاً لمن أغنى عن النعل بالعير

ويذهب ليقضى أمسية عند صديق له فتطيب وتبعثه فى الصباح يقول مستبشراً به طروبا :

وسحت ذكاء فنفت الأكوان الحسان الصباح
فسكرت من أضوائها ونعمت بالسكر المباح
ضحكت ثغور ورده كتضاحك الغيد الملاح
المقبلات كأنهن منى تتوج بالنجاح
وذكرت لطفك فانتشيت فكنت ريحانى وراحى
يا صاحبا فى صحبة جمعت أزاهير الصلاح
وعلى اقتراحك قد نزلت وقد نزلت على اقتراحى
فتمازجت أرواحنا كامتزاج الماء بالراح

هذه الرقة التى تلمسها وتلك الانطلاقة التى تجرى بها الأبيات هى لا شك شعور صادق لا مين فيه . وإنك لتراه مع هذا يحب كما يحب الشعراء ولكنه يعبر عن شعوره فى هذه الرقة نفسها . وإنك حين تقرأ له شكواه من الحب لا تملك إلا أن تفزع معه . يقول :

كف الصدود .. كفى .. كفى عذبت قلبى بالجفا
يكفيك مما شفنى أن الحسود قد اشتفى
إن ترض لى طول السقام قضيت عمرى مدنفا